الفصل الأول

عـــرض المشاكل

يقصدون بالتربية الجنسية فى وقتنا الحاضر سائر التدابير التربوية التى يمكن أن تعين الشباب بكيفية ما على التهيؤ لمواجهة مشكلات الحياة، تلك المشكلات التى تتمركز حول الغريزة الجنسية ثم تعرض بعد ذلك بشكل ما فى خبرة كل إنسان عادى.

موقف الرأى العام من التربية الجنسية

طرأ على الرأى العام فى السنوات الأخيرة تحول أساسى واسع النطاق فيما يتعلق بمسائل التربية الجنسية. فقد انقضى الزمن الذى كنا نواجه فيه معارضة شديدة للتصريح بالحقائق الجنسية، وإن كان من المحتمل أن يبقى بين ظهرانينا لسنوات كثيرة بعض الراشدين المشفقين من هذا الاتجاه يتعبدون فى محراب الجهل بتلك الحقائق. ولعل خير دليل على ذلك التحول تزايد عدد الذين يؤمنون بالتربية الجنسية إيماناً جعلهم يقلعون عما كان يعمد إليه الكثيرون من قبل من التغرير بصغار الأطفال عند ما كانوا يستفهمون عن أمور تتعلق بالناحية الجنسية[1].

ورغم هذا الكسب الذى أحرزه أنصار التربية الجنسية فقد كان يقلقهم وقوف كثير من المربين ذوى الشهرة العالية من هذا الموضوع موقف المعارضة، أو بتعبير أخف موقف الحيدة العابسة. وبقى الكفاح سجالاً بين المصلحين من أنصار التربية الجنسية وبين أولئك المربين داخل وزارة المعارف وخارجها؛ وكان من المتعذر على هؤلاء المصلحين أن يمضوا فى سبيلهم غير عابئين باتجاه هيئة حكومية لها خطوها كوزارة المعارف[*] أو أن يصطنعوا الحزم فى طرح آراء أعلام المربين.

ولقد كانت الشكوك تساور ذوى النوايا الطيبة من الرجال والنساء فيما يتعلق بالتربية الجنسية، وفى أغلب الأحيان كان يمكن فهم أساس تلك الشكوك. والمسئول الأول عن معظم هذا التشكك هم أنصار التربية الجنسية أنفسهم، إذ أنهم فى تحمسهم الحق لقضية رابحة اندفعوا أكثر مما ينبغى أن يندفعوا. وقد دفعتهم رغبتهم الشديدة فى وضع الجنس فى المكان اللائق به من نطاق التربية إلى تنظيم خطة للدراسة يشغل فيها الجنس مجالاً واسعاً. كما أن

---

(١) كانت عادة الكثيرين ولعلها لازالت أن يجيبوا الطفل إذا سألهم كيف جاء إلى هذا العالم «لقد وجدناك عند باب الجامع أو تحت السلم..» كما جرت عادة بعض الأوربيين أن يجيبوا عن مثل هذا السؤال بقولهم «لقد جاءت بك بجعة كبيرة ووضعتك تحت الشجرة».

(*) وهى الآن وزارة التربية والتعليم.

تمسكهم بالرأى القائل بأن الأطفال لا ينبغى أن يتركوا فى ظلمة الجهل بالأمور الجنسية، جعلهم يميلون فى بعض الأحيان إلى إبهاظ كاهلهم بمعلومات تبعد عن النواحى التى يميلون إلى استطلاعها، أو يتعذر عليهم إدراكها من الناحية العقلية، أو الإحساس بها من الناحية الانفعالية. وهذا يدين معظم المتحمسين المتحزبين.

تلك كانت حالهم فى الماضى، أما الآن فثمة تحول طيب. فقد بدأ الآباء يتبينون أن الأمانة فى الإجابة هى خير سياسة فى هذا الميدان، كما هى فى غيره من ميادين المعرفة. كما أيقن المعلمون وقادة الشباب بأن فى أعناقهم جانباً من المسئولية إزاء هذا الأمر، وقد أخذوا فعلاً يظهرون عزماً متزايداً على تحمل تلك المسئولية. وفى نفس الوقت أخذت السلطات التعليمية تعدل مسلكها، الواحدة تلو الأخرى، من المعارضة إلى الحياد، ومن الحياد إلى التحمس. حتى لقد نشرت وزارة المعارف (الإنجليزية) رسالة اعترفت فيها بأن التربية الجنسية ركن هام من أركان التربية وأنها ينبغى أن تقابل بما هى جديره به من الترحاب[1]. وهكذا أخذ الناس فى كل مكان يطالبون بالعمل والتنفيذ ملحين.

أما الخوف من أن يعارض الآباء فى أن يتلقى أطفالهم التعليم الجنسى فى المدرسة فهو أمر تغالينا فى تقديره، إذ الحق أن الآباء يسبحون بحمد المعلمين عندما يتكفل هؤلاء بتربية أطفالهم من الناحية الجنسية، وقد درجت بعض المدارس وبعض الهيئات التعليمية على إخطار آباء التلاميذ حتى تتيح لهم الفرصة كى يمنعوا أبناءهم إذا شاءوا من تلقى هذا النوع من التربية. ورغم أن حكمة هذا التصرف لازالت موضعاً للمناقشة، فإن النتائج التى ترتبت عليها قاطعة الدلالة[2]. بينما فضل القائمون بالأمر فى بعض المدارس الأخرى أن يبدأوا العمل دون إخطار الآباء، فلم يصادفوا أى اعتراض يمكن أن يعتد به. والواقع أن الآباء يسرون للغاية عندما تتكفل المدارس بهذا العمل، ويشكرون القائمين به نيابة عنهم شكراً جزيلاً، مما حدا ببعض المدارس التى كانت قد بدأت تطلب موافقة الآباء إلى التوقف عن أن تفعل ذلك مادام العدد الذى يضن بهذه الموافقة قليل إلى الحد الذى يمكن التغاضى عنه.

وفيما مضى كان ثمة شك يراود نفوس المعلمين – وهو شك ذو عنصرين أساسيين: يتصل أولهما بعنصر الرغبة، فقد أظهرت أكثر من هيئة من هيئات المعلمين نفوراً ملحوظاً من أن تتولى بنفسها أمر التربية الجنسية باعتبارها مسألة جدلية. ولكن الأمر لم يعد أمر جدل بعد،

---

(١) مجلس التعليم: الرسالة التربوية رقم ١١٩ بعنوان: التربية الجنسية فى المدارس ومنظمات الشباب. H.M. Stationery Office 1943, 6d. net.

(٢) لم يرفض ذلك من أولياء الأمور عندهم سوى عدد يعد على الأصابع بل أن بعضاً منهم أرسل موافقته مصحوبة بهبة مالية للمساهمة فيما قد يلزم للتربية الجنسية من نفقات كاستدعاء بعض المحاضرين الزائرين أو استئجار بعض الأفلام لعرضها أو تربية الدواجن بالمدرسة، إلى غير ذلك. (المترجم).

أو على الأقل لم يعد أمر جدال عندما تكون المسألة الرئيسية هى المقصودة. وقد أظهرت اجتماعات المعلمين فى جميع البلاد هذا التحول فى الرأى فى خلال السنوات القلائل الماضية، وهو يتسرب الآن إلى ذوى المناصب وبدأ ينتج آثاره فى الدوائر الرسمية، حتى لنجد سواد المعلمين الآن من حيث المبدأ فى صف التربية الجنسية[1].

ويتعلق **العنصر الثانى** بالمسئولية فقد ألقيت على عاتق المعلمين فى السنوات الأخيرة أعباء شتى خارج نطاق مهمتهم الرئيسية وهى التعليم، ولذا فإنهم يتشككون – ويمكن فهم الداعى إلى هذا التشكك فهماً تاماً – فى أية محاولة تبذل لإلقاء عبء آخر على أكتافهم. إلا أن المعلمين وإن كانوا يقولون بمسئولية الآباء عن بعض نواحى التربية الجنسية، ويصممون على قولهم، فإنهم مستعدون فى جملتهم للموافقة على أن منها نواح كثيرة أخرى يتحتم إنجازها فى المدرسة أيضاً.

أما فيما يتعلق برأى التلاميذ أنفسهم فيكفى أن نورد فيما يلى ما كتبته طالبة بإحدى المدارس الثانوية بإنجلترا تعليقاً على اهتمام مدرستها بأمر التربية الجنسية قالت: «بينما كنت أحاول أن أسترجع تلبياتى الأولى لهذا التجديد تبينت أن مشاعرى لم تكن ذات طبيعة مشدوهة أو مرتعبة على الإطلاق، والحق أن تعليقى الفكرى الوحيد الذى أستطيع أن أذكره هو أنى قلت لنفسى. «سوف يحدث لى نفس الأمر بمرور الزمن» وعندى أن كل الخطر الذى يتعلق بهذا الأمر الخاص بالجنس إنما ينجم عن إخفائه عن الصغار، لأنك إذا وضعت شيئاً على رف المدفئة وقلت لابنك الصغير أنه يستطيع أن يلعب بأى شىء آخر فى الحجرة ما عدا ذلك الشىء، فلك أن تتأكد أنه فى اللحظة التى تغيب فيها عن ناظريه فسوف يبذل كل محاولة كى يصل إليه، وهو فى محاولته هذه سوف يسقط فى النار أو يقع من على الكرسى. والشىء المهم هنا أن الطفل – لا والده – هو الذى سوف يناله التأنيب. وفى أية حالة من الحالات يحتمل أن يكون الشىء الممنوع غير ضار أبداً، إذا عولج كما ينبغى. ووجه المقارنة هنا واضح، فإن مسائل الجنس على وجه العموم كانت تخفى عنا بل أنها كانت تترك جانباً كشىء لا يمكن مسه».

والأطفال الصغار لا يكادون عادة يفكرون فى هذا الأمر تفكيراً خاصاً، ولكنهم يتقبلون مثل هذه الدروس كشىء عادى وطبيعى تماماً.. وإن كان أحد تلاميذ لندن الصغار قد سمع وهو يعلق تعليقاً حكيمًا جداً بقوله «إذا ما بدأت تفكر فى هذا الأمر، فسوف لا تجد فيه ما يدعو إلى الغرابة». وإذا ما انتهينا من الكلام عن المعلمين والطلاب وحاولنا أن نتبين الاتجاه عند

---

(١) الاتحاد الأهلى للمعلمين: تدريس الجنس فى المدارس. نبذة حررتها اللجنة التنفيذية للاتحاد الأهلى للمعلمين (١٩٤٤ م) يحصل عليها من Hamiltion House – لندن.

المتطوعين فى المنظمات لخدمة الأطفال والمراهقين، نلاحظ انقسام الرأى بالتساوى مع التربية الجنسية وضدها. وإلى عهد قريب اقتصر أمر الاهتمام بالتربية الجنسية على عدد قليل من هذه المنظمات فأدخلت التربية الجنسية كجزء عادى من عملها، وحاولت أن تعالج بذلك نقائص المنزل والمدرسة. أما فى وقتنا الحاضر فقد تبينت المنظمات الكبرى، كالفتيان الكشافة والمرشدات وفرق الأشبال ونوادى الشباب، مسئوليتها هى الأخرى وبدأت تتخذ أهبتها للعمل. وفى نفس الوقت نجد حركات التدريب العسكرى والإسعاف تنضم إلى ركب العاملين أيضاً، بحيث لم تعد تنحصر المشكلة الآن فى ترغيب القادة فى القيام بمهمة التربية الجنسية وإنما أصبحت فى مواجهة الإقبال الهائل عليها بشكل مرض.

وقد أخذت بعض الهيئات الدينية تعمل فى نفس الاتجاه، فقد ظهرت بين رجال الدين منذ سنوات، أقلية مستنيرة أتمت عملاً جليلاً فى هذا الميدان، وأخذت الأقلية تعمل لنشر آرائها والإكثار من أنصارها حتى كادت تصبح غالبية. ويبدو لنا أنه مادام هناك اعتراف من جانب رجال الدين بأهمية التربية الجنسية وتسامح إزاء وجهات النظر الجدية المخلصة، فإنهم لن يقيموا أية عراقيل فى سبيلها من ناحيتهم.

وقد أصبح الجميع الآن، من عامة الشعب، إلى مديرى التعليم والصحة، إلى رجال الدين والهيئات الاجتماعية، إلى المعلمين وقادة الشباب، إلى الآباء والتلاميذ، على استعداد للسير فى هذا الاتجاه قدماً إلى الأمام.

ويبدو أننا لم نعد بحاجة إلى مكافحة ما كان يلجأ إليه الآباء من التعمية فى الأمور الجنسية. كما لم يعد من الضرورى أن نعزز قضية التربية الجنسية بالكلام الحماسى بقدر ما يتطلب الأمر منا تفكيراً عميقاً. فالحاجة الآن ملحة إلى الدراسة الدقيقة للنتائج التربوية الكثيرة التى تتضمنها التربية الجنسية.

أهداف التربية الجنسية

وأول ما ينبغى البحث فيه هو الغاية التى نرمى إليها، فما هى أهداف التربية الجنسية، وما هى إمكانياتها؟ يجب أن يكون هناك هدف موضوعى مرغوب فيه، يمكن الوصول إليه ويصلح لاستخدامه أساساً للعمل المفيد. وهذا ما لا يمكن أن يتوفر لبعض الأهداف التى قد طرحت فعلاً.

فهناك من يستعمل لفظ «التربية الجنسية» ويقصد به انتشار أهوال الأمراض الزهرية، على أمل أن يرعب الشبان ويرغمهم على «الصلاح»؛ كما أن هناك آخرون يهدفون إلى تكوين «الفضيلة» عن طريق التهديد بنار جهنم. ولكن المربى الحق لا يستطيع أن يجد المجال المناسب للعمل مع وجود مثل هذا «الصلاح» وتلك «الفضيلة»، إذ أن الفضيلة الجديرة باسمها

حقًا لا يصح أن تقوم على أساس الخوف، سواء أكان خوفًا من المرض فى الحياة الدنيا أو من العذاب فى الآخرة. فمثل هذه الأغراض لا ترجح عند وزنها بميزان المثل الطيبة التى ترغب فيها.

وهناك أهداف أخرى، مرغوب فيها لذاتها إلى حد كاف، ولكنها لا ترجح عند اختبارها على أساس صلاحيتها للتنفيذ. فإنك إذا اتخذت التربية الجنسية وحدها وسيلة إلى القضاء على الفجور والاتصال الجنسى غير المشروع، وإلى تهيئة الهناءة والوفاق بين جميع الأزواج بحيث تختفى جميع حالات الطلاق، وإذا أنت اقتصرت عليها كوسيلة لإلغاء الزنا ومنع البغاء كنت كالراقم على الماء. فأمراض المجتمع الجنسية كثيرة متأصلة، والتربية، وحدها دون عون يضاف إليها، سوف لا تستأصلها، فإلى جانب التربية الجنسية يحتاج الأمر أيضاً إلى تغييرات اقتصادية وسياسية ووجهة نظر اجتماعية وروحية جديدة.

ورغم ما تقدم فلا يصح أن يتطرق اليأس إلى نفوسنا، إذ تستطيع التربية الجنسية أن تفعل شيئاً كثيراً حتى فى داخل هذه الحدود التى تفرضها أوضاع المجتمع. فمن الأهداف الجليلة العملية أن يشب مواطنونا على معرفة كبد الحقيقة لا على التمسك بأهداب الترهات الرخيصة، وأن يكون اتجاههم الوجدانى نحو الأمور الجنسية اتجاهاً سليمًا لا اتجاها شائها ملتوياً، وأن تنبنى شريعتهم فى الأخلاق الجنسية على تأمل جميع نتائج العمل تأملاً سداته التفكير الرائق ولحمته الإخلاص الدافق.

نواحى التربية الجنسية

ويجدر بنا أن نفكر لحظة فى النواحى المختلفة للتربية الجنسية، وأن نحاول تقدير أهميتها النسبية. وأول هذه النواحى وأكثرها وضوحاً مسألة توصيل المعلومات الجنسية للأطفال، ونحن وإن كنا سوف نعالج هذه المسألة فيما بعد لنبين المقدار المناسب من هذه المعلومات وطريقة عرضها على الأطفال فلا بأس من أن نذكر هنا أن توصيل هذه المعلومات للأطفال هو حجر الأساس فى التربية الجنسية، إذ أن الحقائق الجنسية جزء من الميراث الفكرى الذى لا يصح أن يحرم الأطفال منه والذى يجب أن يفضى به إليهم. وهم وإن كانوا بعد وقوفهم على حقيقة الأمر قد لا يتصرفون بحكمة فى سائر الأحوال إلا أنهم يفتقدون بدونها الأساس المكين الذى يستندون إليه فى بناء أحكامهم.

يبدو أن التربية الجنسية أكثر من مجرد توصيل المعلومات. ومع أن الواقع أن معرفة الحق نادراً ما تضر وكثيراً ما تنفع وتفيد، حتى أنه ليحق لكل من يسهم بنصيب فى إزالة جبل الجهالة الجاثم فى هذا الموضوع أن يشعر أنه أنجز عملاً مفيداً، إلا أن دراسة التاريخ القديم أو المعاصر، أو حتى دراسة كل منا لأصدقائه سوف تبدد سريعاً ما عساه يكون هناك من ظن

بوجود ارتباط حتمى وثيق بين معرفة الفرد وإتيانه للعمل الطيب، إذ يحتاج الأمر إلى شىء أكثر من مجرد المعرفة.

والمعلومات التى تستند إلى الحقيقة ضرورية، ولكن من الضرورى أيضاً أن تفسر للتلاميذ العلاقة القائمة بين حقائق التشريح البشرى ووظائف الأعضاء وبين تقاليد المجتمع البشرى ونواميسه.

سوف يبين تدريس علم الأحياء لأبنائنا (برغم شدة إيجازه) أن أعضاء التناسل عند البشر تشبه بصفة أساسية أعضاء التناسل عند الثدييات الأخرى. فإذا حدث وتوقفت التربية الجنسية عند هذا الحد فمن الطبيعى أن يستنتج الطفل بطريقة منطقية أن السلوك الجنسى للفتى الموفور الصحة ينبغى ألا يختلف كثيراً عن سلوك أرنب فتى موفور الصحة. وما دمنا لا نرغب بطبيعة الحال أن نتخذ من سلوك الأرنب نموذجاً نحتذ به فى سلوكنا الجنسى، فإن تربيتنا يجب أن تحطم هذه القيود الضيقة، وذلك بأن نعالج فى المراحل المناسبة تلك النواحى التى نختلف فيها نحن البشر عن الثدييات الأخرى نتيجة لرقى الجهاز العصبى رقياً ينفرد به الإنسان، ونتيجة لما يتميز به من ميل إلى الاجتماع. ولك أن تسمى هذه الدراسة «علم اجتماع» أو أن تعتبرها جزءاً من علم الحياة – ومهما تكون التسمية فإن ما تنطوى عليه لهى أمور جليلة الخطر فائقة الأهمية.

غير أن مجرد معرفة التقاليد الاجتماعية سوف لا تضمن لنا وحدها حياة جنسية مكتملة صالحة. إذ يجب أن يلهم أطفالنا سمو الجنس وإمكانياته الهائلة، فإذا فرضنا على صغار السن منا أن يحرموا أنفسهم المتع الحسية المباشرة التى يمكن أن توفرها لهم أجسامهم، فلابد من أن يجدوا مبرراً لمثل هذه التضحية. وإذا طلبنا منهم أن ينتظروا، وجب علينا أن نشعرهم بأن لهم مستقبلاً، ومستقبلاً جديراً بأن ينتظر الإنسان من أجله. وإذا كان للمجتمع مطالب، فيجب أن يبعث فى نفوس أعضائه الاقتناع بأن تلك المطالب تبلغ من السمو مبلغاً يدفعهم إلى الاستجابة لها، فالسلوك يتوقف على المثل العليا وعلى الإيمان بقدر ما يتوقف على المعرفة والإدراك.

سن التعليم

وهناك أمر يحتاج إلى رؤية وإعمال فكر، ألا وهو السن المناسبة لتعلم الأمور الجنسية. وقد يحدث فى بعض الاجتماعات أن يوجه السؤال مباشرة على النحو الآتى «فى أى سن ينبغى أن تكون التربية الجنسية؟» ومن الواضح تماماً أن الرد على هذا السؤال ليس من البساطة فى شىء. فلا يمكن أن تحدد سن معينة للتربية الجنسية، كما لا يمكن هذا التحديد بالنسبة لأى مظهر من مظاهر التربية الصحية أو تدريب الخلق؛ إذ يجب أن تستمر عملية التربية الجنسية من المهد إلى اللحد، ولذا يجب أن تعاد صياغة السؤال ليصير «أى نواحى التربية الجنسية

تتناسب بالذات مع الأعمار المختلفة؟» وسوف نجيب فيما يلى إجابة جزئية عن هذا السؤال اللازم الدقيق. بيد أنه مما يستحق الذكر أن نقرر منذ الآن أن ما يحدث فى السنوات القلائل الأولى من الحياة أمر له أهمية أساسية فى تكوين اتجاه نفسى سليم نحو الجنس، وأن الحقائق الفسيولوجية الرئيسية ينبغى أن يفهمها الأطفال فهماً تاماً قبل أن تدهمهم فترة المراهقة.

وثمة أسباب رئيسية ثلاثة هذا الاقتراح القائل بأن التعليم المبنى على معرفة حقيقة الأمور الجنسية ينبغى أن يكتمل بشكل جدى فى الفترة السابقة للمراهقة. وأكثر هذه الأسباب وضوحاً هو أن المراهقة فترة لها مشاكلها الخاصة، وهى مشاكل لها أصل جنسى فى الغالب، وينجم عنها قدر كبير من القلق للشبان والشابات. ومما يساعدنا على تذليل صعاب تلك الفترة أن يعرف الأطفال مقدماً ما هى التغييرات التى ينتظر أن تحدث لهم بعد أن يصلوا إلى دور البلوغ.

ولا يقل عن ذلك فى الأهمية ما يحدث إذا أرجأنا توضيح حقيقة الأمور الجنسية للبنين والبنات حتى يبلغوا الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرهم، فإن غالبية البنين والبنات فى العصر الحديث يكونون قد التقطوا معلومات كثيرة من هنا وهناك وجلها معلومات مسممة. أما الحقائق – وهى نظيفة فى حد ذاتها – فإنها تكون قد تلطخت بأدران المسالك التى مرت بها. ولما كان من الواجب أن نتقبل أمور الجنس كشىء عادى سليم، وجب أن تتم معرفتها فى جميع المراحل بكيفية عادية سليمة، وهذا يحتم علينا إلا نهىء لخلان الشوارع ورفاق اللعب فرصة عام أو عامين يسممون فيها أفكار الصغار قبل أن يعرض عليهم الآباء والمعلمون ما يناسبهم من الحقائق الجنسية.

غير أن أهم ما يدفعنا إلى القول بضرورة التعليم الجنسى المبكر هى الحقيقة التى تمخضت عنها التجارب؛ فقد دلت التجربة على أن التعليم حينئذ يكون أكثر قبولاً من جانب الأطفال أنفسهم ويفيدهم بشكل أسرع وأقرب إلى الطبيعة. أما فى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة فإن الشبان والشابات – كما يشهد كل من حاز خبرة واسعة فى هذا الموضوع – يكونون قد شرعوا فى تكوين اتجاهات انفعالية نحو الأمور الجنسية، مما يقيم الصعاب فى طريق التعليم. ولكنهم، قبل سن المراهقة، يتقبلون ما يقال لهم عن الجنس والتناسل بدون أى أثر للخجل أو الارتباك.

وثمة نواح معينة من التربية الجنسية لا تناسب الأطفال ولا يمكنهم فهمها تماماً إلا عندما يبلغون مرحلة معينة من مراحل نموهم، فهناك بعض معلومات أفضل ما تعرف فى فجر المراهقة، وأخرى فى أواخر فترة المراهقة وبعضها قبل الزواج وبعضها الآخر بعد الزواج. وبعضها قبل إنجاب الأولاد وأخرى بعد ذلك. وكل ما نحتاج إليه الآن هو التفكير السليم مع مراعاة الحرص والتفاصيل فى أفضل سن يناسب كل مرحلة من مراحل التربية الجنسية.

من المسؤول عن التربية الجنسية؟

وثمة مسألة على درجة قصوى من الأهمية يلخصها السؤال الآتى: من الذى يجب عليه أن ينقل إلى الطفل هذا الجوهر الرئيسى للمعرفة، أعنى هذا الفهم العميق لفسيولوجية التناسل البشرى، وما يصاحبه من انفعالات ومعان اجتماعية؟ أهو الوالد أم رجل الدين أم الطبيب أم رائد الشباب أم المعلم؟ وليس من النادر أن يقابل من يتحدث إلى المدرسين فى موضوع التربية الجنسية بالتحدى الآتى: «ولكن ألا يدخل هذا الأمر قطعاً فى مسؤولية الآباء؟» أما فى اجتماعات الآباء فيختلف شكل التحدى بحيث يصير «لماذا لم يعلمونا هذا الأمر ونحن فى المدرسة حتى نصبح أكفاء لتولى هذه المهمة؟» وهكذا يرفض فريق من الكبار هذه المهمة على أساس أنها تدخل فى مسؤولية فريق آخر، فى الوقت الذى لا يستطيع فيه هذا الفريق الأخير أن يتولاها لحاجته إلى التدريب الصحيح على يد الفريق الأول. إن هذا التهرب من المسؤولية وخيم العاقبة ويجب أن يوقف عند حده.

وإذا نظرنا بعين الواقع إلى أمور المجتمع بحالته الراهنة، لا كما لو كان «المدينة الفاضلة» والمجتمع المثالى الذى نتطلع إليه فى المستقبل، فليس هناك جدال فى أننا سوف نجد أن غالبية الآباء غير أكفاء للقيام بالقسط الأكبر من هذا التعليم. وحتى إذا توفرت الرغبة لدى الوالد فغالباً ما تعوقه مشكلة التعبير بالألفاظ البسيطة. وحتى بعض ذوى الثقافة العالية لا يتبينون إلى أى حد تكون مسألة التعبير باللفظ مهمة شائكة، بل إن هذا الأمر يصدق أيضاً بالنسبة لبعض المعلمين رغم أنهم قد اكتسبوا قدراً لا بأس به من الألفاظ الشاملة نتيجة لطبيعة مهنتهم ذاتها. تصور حيرة الوالد الذى يرغب مخلصاً فى أن يجيب طفله وقد سأله: من أين يأتى الوليد؟ وكيف ينمو؟ وما فائدة الأب؟ إلى غير ذلك من الأسئلة. إذ كيف يستطيع أن يجيب عن هذه الأسئلة وهو يجهل المصطلحات التشريحية البسيطة كالقضيب والمهبل إلى غير ذلك. إن معظم الآباء لا يعرفون سوى الأسماء الدارجة للأعضاء الجنسية والعمليات التناسلية، ومعظمها ألفاظ انحطت فى نظر المجتمع على مدار القرون القليلة الماضية، حتى بلغت الحضيض وأصبحت مبتذلة تبلغ درجة الفحش فى بعض الأحوال. يتضح من ذلك أن كلاً من الآباء والأبناء يحتاج بديلاً من الكلمات والتعبيرات يمكنهم استخدامها علناً وفى غير استحياء.

وقد كتبت معلمة لها خبرة عظيمة فى هذا الميدان تقول عن دروسها فى علم الأحياء:

«كان كل مثل من الأمثلة يقودنا إلى فكرة جديدة، كما كنا نتعلم فى كل مرحلة مصطلحاً علمياً جديداً، وهذا فى أعتقادى هو المهم؛ حتى إذا ما وصلنا إلى موضوع التناسل فى الكائنات الحية كان لدى الأطفال شىء من التقدير لأهمية عملية التلقيح وبعض الخبرة بالمصطلحات التى ينبغى أن تستعمل، وهى مصطلحات علمية لا ينتج عنها أى ترابط شهوانى أو مبتذل».

ولعل شعور الآباء والأمهات بحرج المهمة يتضح من عبارة إحدى التلميذات وهى تخاطب مدرستها التى ضمنت منهج دروساً عن تناسل البشر، إذ قالت فى سياق الكلام:

«والرأى عندى أن مثل هذه الدروس مفيدة جداً. ومن الخير لنا أن نعرف شيئاً ذا غناء عن هذه الموضوعات. لقد درست لنا موضوع الأعضاء التناسلية دون أن تجعلينا نشعر بالحرج. وكنت معنا كريمة جداً لدرجة أن سمحت لنا بتوجيه أسئلة كانت جد عويصة وكان عليك أن تفكرى فى مراميها. حقاً لقد قالت والدتى أن الآنسة.. أصلح منها لهذه المهمة لأنها تعرف الأسماء العلمية ولأنها لذلك تستطيع أن تخبرنا بأمرها خيراً مما تستطيع هى».

وتعبير التلميذة السالف وإن كان مشوشاً إلى حد ما إلا أنه واضح المعنى إلى حد كاف.

وثمة دليل على خطأ الرأى القائل بأن عبء التربية الجنسية كله يمكن أن يلقى على عاتق الوالد فقط، ذلك أن معظم الأطفال يفضلون أن يتوجهوا بأسئلتهم إلى أى راشد ما عدا والديهم بالذات. وهذا وإن كان يرجع جزئياً إلى موقف الوالدين إلا أنه حقيقة يجب أن نسلم بها. وقد علقت إحدى التلميذات على محاضرة ألقتها طبيبة المنطقة التعليمية بقولها:

«لقد كان عليها واجب لا تحسد عليه، ومع ذلك فليس بيننا واحدة تستطيع أن تفيها حقها من التبجيل أو أن تمجد الطريقة التى اتبعتها فى أداء هذا الواجب التمجيد الذى تستحقه. وقد أبدت إحداهن الملاحظة التالية: «إنى افضل أن أتحدث إليها عن أن أتحدث إلى والدتى» وهذا مديح للطبيعة لاشك فيه، ولكن ما عساه يعنى بالنسبة للأم؟».

لابد لتولى هذه المهمة بنجاح من جيل جديد من الآباء يفضل الجيل الحاضر فى ثقافته ويقل عنه فيما تنطوى عليه نفوس أفراده من أشكال الكف والإحجام، ويزيد عنه معرفة بعلم الأحياء وما يتصل به من المعلومات. أما «ترك المسألة للآباء» فى الوقت الحاضر فليس سوى تهرب من المسؤولية من جانب المعلمين بينما يجب عليهم أن يتعاونوا مع الآباء فى هذا الميدان.

وهناك رأى قوى ينادى أصحابه بأن يتولى التعليم الجنسى طبيب أو طبيبة. وليس ثمة شك فى أن للطبيب جوراً هاماً فى الحالات الفردية العسيرة، وخاصة إذا كان طبيباً نفسانياً. إلا أن الأطباء (حتى أولئك الذين لهم معرفة طيبة بنظريات التربية) ليس لديهم الخبرة التربوية الكافية كى نطلق عليهم وصف المعلمين. كما أن المعلمين على وجه العموم ليس لديهم الخبرة الإكلينيكية الضرورية لكى نطلق عليهم وصف الأطباء (حتى أولئك الذين لديهم معرفة أكيدة بعلم وظائف الأعضاء «الفسيولوجيا» وعلم الأمراض «الباثولوجيا»)؛ فليس هناك معدى إذن من النتيجة النهائية وهى أن التربية الجنسية إلى حد كبير مهمة الأخصائى التربوى، وهو المدرس.

وعلاج المشكلة إذا تناولناها من شتى جوانبها يحتمل أن يكون مثمراً أكثر مما لو قصرنا هجومنا على جانب واحد من جوانبها المختلفة. لذا يجب على المعلمين أن يقروا بعدم كفاية

معظم الآباء لتولى هذا الأمر وأن يتكلفوا هم أنفسهم بنصيب وافر وحتى – بأكثر من نصيب وافر – من المسؤولية وذلك لعدة سنوات مقبلة. ومن الناحية الأخرى يجب على الآباء اليوم أن يبذلوا ما فى وسعهم لأداء هذه المهمة دون اعتبار لما سوف يقوم فى وجههم من عراقيل لاشك فيها. كما يجب على قادة الشباب أن يتحملوا نصيبهم من المهمة، وكذلك الحال بالنسبة للعاملين فى ميادين الدين والاجتماع والطب. أما الجدال العقيم فى توزيع المسؤولية بين هؤلاء بالعدل والقسطاس فينبغى أن يخلى مكانه لإعداد جدى يمهد للسير الحثيث بالمهمة الموكولة الينا، وإلى تعاون وثيق بين جميع من لهم دور فى هذا العمل.

مشكلات تنتظر الحل

بيد أن دراسة المكان ينبغى أن تسبق دور الإنشاء بل يجب أن تسبق وضع تصميم البناء، ولذا ينبغى علينا أن نعرف ما هو هذا الجنس الذى يشغل اهتمامنا إلى هذا الحد؟ وهل له دور آخر يلعبه فى الحياة البشرية عدًا دور الإنسان؟ وما هى معاييرنا التى يجب أن تكون بالنسبة للسلوك الجنسى – بل وماذا كانت المعايير بالضبط فى أماكن أخرى وأزمان أخرى؟ وهل فى مقدورنا أن نسنن قوانين خلقية عامة تصلح لكل زمان، أم يجب أن تعدل هذه القوانين باستمرار حتى تتلاءم والظروف الاجتماعية المتغيرة؟ وعندما نعلم أين نقف من هذه الأمور كلها، عند ذلك فقط يمكننا أن نبدأ فى وضع خططنا.

ومتى انتهينا إلى اتفاق فى تلك المسائل، واجهت المرّبى مشاكل ذات أوجه ثلاثة. أولها مشكلة البيئة المنزلية – فهو فى حاجة إلى تبين نوع العلاقات التى ينبغى أن تسود بين الأم والأب، وبين الوالدين والطفل، وبين الأخ والأخت لتؤدى بنوع خاص إلى تكوين الاتجاهات السليمة نحو الجنس؟ ثم هناك بعد ذلك تلك المشكلة الدائمة، وهى كيفية الإجابة عن الأسئلة «المربكة» (وهى تكتسب هذه الصفة عادة نتيجة لتصرف الآباء أنفسهم). وأخيراً كيف ينبغى أن تتصرف الآباء إزاء ما يبدو من ذريتهم مما يتعلق بالأمور الجنسية، من أول لعب الطفل بأعضائه التناسلية إلى يوم تأهله وهو شاب بالغ؟ إن هذه النقط على أعظم جانب من الأهمية، وهى تستوجب من الآباء والأمهات عناية فائقة. وعندما يدرج الطفل بعد ذلك من المنزل إلى المدرسة يبرز المدرس فى الميدان. فأى مكان ينبغى أن يشغله المدرس: أهو مركز الدائرة أو ركن معتم من أركانها؟ فإذا ما استقر الرأى فيما يتعلق بهذه المسألة تساءلنا عما يجب عليه أن يعمله؟ كيف ينبغى أن يوصل المعلومات الجنسية إلى تلاميذه وماذا يبقى عليه بعد أن يتم هذه المهمة التعليمية؟ لقد كانت هذه الأمور كلها موضع نقاش من وقت إلى آخر، ولكننا رغم ذلك سوف نجعلها موضع نقاش طويل فيما بعد.

وكلما نما مواطننا الصغير، فإن رائد الشباب والمرشد الاجتماعى يشغلان فى حياته مركزاً مهماً، حيث تعرض لهما مشكلة تعلو على سائر المشاكل الأخرى تلك هى مشكلة المراهقة: فما هى طبيعة المراهقة؟ وما هى مشاكلها الخاصة بها، وكيف يمكن أن تذلل هذه المشاكل؟ وهنا مادة تستوعب كتابا قائماً بذاته بله كتب كثيرة. غير أننا سوف نخاطر – فى فصل واحد – فنحاول الإجابة، إجابة مبدئية موجزة، عن هذه الأمور.

فأيا كان المربى، سواء أكان معلماً أو والداً أو قائد شباب أو غير هؤلاء فسوف يحتاج إلى أن يتفرس لحظة فى ميدان التربية الجنسية كله، من خلال الطرف الآخر للمنظار، ليتبين الشىء الذى يريد الأطفال والبالغون معرفته، وما هى المشاكل التى ينشدون فيها التوجيه؟ وبأى أسلوب يتكلمون، وإلى أى حد هم قادرون على التغيير عن أنفسهم؟

وعندما نستطلع الميدان على هذا النحو، نستطيع أن نمضى فى رسم خططنا فنبحث نوع المؤهلات التى يحتاج إليها القائم بأمر التربية الجنسية، والكيفية التى ينبغى أن يكون عليها منهجنا فى العمل؟ وأخيراً ما هى المعرفة التى يمكن أن تبذل لأولئك المبتدئين فى هذا الميدان؟

وقد تناولنا معظم هذه الأسئلة بالبحث فى الفصول التالية، وإنه وإن كان من المحتمل أن الإجابة الكاملة لم تكن من نصيب واحدة منها، إلا أن واجب المربين يحتم عليهم أن يوجهوا إليها جميعاً بالغ الاهتمام.